فهم الإنسان .. بين علم النفس و الرواية

صادفت قبل أيام منشورًا على إحدى منصات التواصل الاجتماعي يحمل عنوانه تساؤلًا: لماذا تفعل الرواية ما لا يفعله علم النفس؟

وجاء في المنشور أن علم النفس يسأل: لماذا تتصرف هكذا؟ بينما تسأل الرواية: كيف عاش الإنسان حتى وصل به المطاف إلى هنا؟ ثم خلص إلى أن الروايات تمنح فهمًا للإنسان لا تستطيع الكتب النفسية أن تمنحه، حيث أنها تجعل القارئ يعيش التجربة من الداخل، بينما يتناولها علم النفس من خلال مفاهيم وتحليلات مجردة.

توقفت عند الفكرة طويلًا، لا لأنها تخلو من الوجاهة، بل لأنها من تلك الأفكار التي يختلط فيها شيء من الحقيقة بشيء من المبالغة، فقد تكون الرواية قادرة على أن تقرب القارئ من مشاعر شخصياتها، وأن تجعله يرى العالم بعيونهم، وأن توسع دائرة تعاطفه مع أناس قد يختلف معهم أو حتى يدين أفعالهم.

لكن هل يعني هذا أنها تجعله يفهم الإنسان فهمًا أعمق مما يفعله علم النفس؟

لست أظن ذلك، لأن القول بأن الرواية تمنح فهمًا للإنسان يتجاوز ما يقدمه علم النفس ينطلق من خلط بين نوعين مختلفين من المعرفة: معرفة تحاول تفسير الإنسان، ومعرفة تسعى إلى تجسيده.

فعلم النفس يبحث في السلوك الإنساني من خلال دراسة العوامل التي تسهم في تشكيل الشخصية وتحليل الدوافع والأنماط التي تتكرر بين البشر، محاولًا الوصول إلى فهم أوسع للظواهر الإنسانية.

أما الرواية فلا تسعى إلى وضع تفسير عام للإنسان، وإنما تقدم تجربة إنسانية متخيلة من خلال شخصيات صاغها مؤلف وفق رؤيته الخاصة للإنسان والحياة.

وفي تقديري يأتي هنا الالتباس، فالقارئ قد يشعر أنه اقترب من فهم الإنسان لأنه عاش تجربة شخصية روائية بكل تفاصيلها ومشاعرها، لكنه في الحقيقة اقترب من فهم إنسان كما اختاره الكاتب وقدمه له، لا من الإنسان في تعقيده الكامل، فالرواية قد تمنح رؤية عميقة ومؤثرة لكنها تظل رؤية مشروطة بزاوية المؤلف واختياراته الفنية والفكرية.

وتحضرني هنا شخصية "آنا" تلك المرأة الخائنة بطلة رواية تولستوي الشهيرة "آنا كارنينا" والتي يراها كثير من قراء الروايات مثالًا على قدرة الرواية على فهم الإنسان، غير أن الأمر ليس كذلك، فالقارئ لا يفهم "آنا" بقدر ما يتلقى تفسير تولستوي لها، فهو لا يطالع شخصية مستقلة عن رؤية الكاتب يمكن أن تتعدد الروايات حولها بل شخصية صاغها مؤلف وحدد ماضيها واختار أفكارها ورتب مواقفها وقرر أي جوانبها يضيء وأيها يترك في الظل.

كما أن تعاطف بعض القراء مع "آنا" لا يثبت أنهم فهموا امرأة خائنة وقعت في صراع نفسي وإنما يثبت أن تولستوي كان بارعًا في حملهم على رؤية تلك المرأة من الزاوية التي أرادها لهم.

وليس ذلك عجيبًا فهذه هي طبيعة الأدب الروائي، فالكاتب لا يكتفي بسرد الوقائع وإنما يختار ترتيبها ويقرر متى يدخل القارئ إلى حياة الشخصية ومتى يكشف له ماضيها ومتى يطلعه على هواجسها ومتى يحجبه عن دواخل الشخصيات الأخرى، وهكذا لا يتلقى القارئ الأحداث مجردة وإنما يتلقاها وقد صيغت بعناية لتقوده إلى وجهة نظر بعينها.

وهذا ما فعله تولستوي مع "آنا" فهو لا يضع القارئ منذ البداية أمام امرأة خانت زوجها فحسب بل يقدمه أولًا إلى امرأة تعيش زواجًا فقد دفأه ويجعله يرافقها في حيرتها ويستمع إلى حديثها مع نفسها ويتابع صراعها بين واجبها ورغبتها حتى يصبح قريبًا من عالمها الداخلي قبل أن يقف أمام فعلها الأخلاقي.

وفي المقابل لا تمنح الروايةُ زوج "آنا" المساحة النفسية نفسها، فالقارئ لا يعيش التجربة من داخل الزوج الذي اكتشف خيانة زوجته بالقدر الذي يعيشها من داخل "آنا" ولا يرافقه في وحدته وانكساره ولا يسمع صوته الداخلي بالمقدار نفسه، وكذلك طفلها الذي حُرم من أمه، لا يعيش القارئ ألمه إلا لمحات متفرقة مع أن خسارته ربما كانت أفدح من خسارة الجميع.

ولهذا فإن التعاطف الذي تولده الرواية ليس دليلًا على أن القارئ بلغ حقيقة الإنسان بل قد يكون دليلًا على نجاح الكاتب في بناء منظور روائي شديد الإقناع.

ولو أن تولستوي أعاد كتابة الرواية كلها بلسان زوجها فهل كان معظم القراء سيخرجون بالتعاطف نفسه مع "آنا"؟ ولو رويت بلسان ابنها هل كان التعاطف سيستقر في الموضع ذاته؟

لعل طرح هذا السؤال يكفي ليجعل القارئ يراجع يقينه بأن ما خرج به من الرواية هو الحقيقة الكاملة، لا الحقيقة كما اختارها السرد.

وتكمن الخطورة الحقيقية هنا في الأثر التراكمي الخفي، فحين يُسلم القارئ وعيه بالكامل للمؤلف دون تمييز نقدي فإنه لا يكتفي بالتعاطف العابر وإنما يبدأ في إعادة تشكيل عقله وشخصيته ومبادئه تدريجياً ولا شعوريا وفق قناعات كاتب الرواية وقد يجد نفسه، مع

تكرار القراءة يتبنى أحكامه عن الخير والشر، والضحية والجاني، والفضيلة والرذيلة و يمتص فيها القارئ منظومة قيمية كاملة صاغها كاتبٌ قد يكون بارعاً في حبكته، لكنه ليس بالضرورة مصيباً في فلسفته أو مرجعيته الأخلاقية.

ولهذا يصعب القول إن الرواية تكشف حقيقة الإنسان، إنها تكشف في المقام الأول كيف يرى الكاتب ذلك الإنسان.

وهذا لا ينتقص من قيمة الأدب، وإنما يحدد طبيعته وحدوده، فالأدب قد يمنح القارئ خبرة وجدانية ويوسع خياله، لكنه لا يقدم معرفة موضوعية بالنفس البشرية ولا يمنح مفاتيح الإنسان النهائية.

ولعل المشكلة تبدأ حين يختلط التعاطف بالفهم، والمشاركة الوجدانية بالمعرفة. فأن يتأثر القارئ بشخصية روائية أو يتألم لألمها أو يقتنع بمنطقها لا يعني بالضرورة أنه أصبح يفهم الإنسان فهمًا أعمق مما يقدمه علم النفس.

فالرواية وعلم النفس طريقان مختلفان أحدهما يسعى إلى التفسير والتحليل والآخر إلى التصور والتخيل، ولا يصح أن يُنسب إلى أحدهما ما ليس له.

أما الإنسان نفسه فيبقى أكثر تعقيدًا واتساعًا من أي رواية مهما بلغت عبقرية كاتبها.